وجهة النظر الجديدة فى الحياة

للكاتب الصينى الكبير واب يوه شينغ

[حديث ألقاه فى جمعية الثقافة المركزية بتشنغ كنغ]

بقلم الأســـتاذ نور ناهين

إنى لم ألق محاضرة فى مكان عام ، فى تشنغ كنغ ، منذ بضع سنين لسببين : أولهما أنه لم يكن عندى كلام أحب أن أقوله فأحاضر فيه ، لذلك أمسكت عن الكلام ، لأستر فضيحتى عن أعين الناس . والآخر أنه لو كان عندى شىء من الرأى ، لاستطعت أن أنشره فى الجرائد والمجلات ، وما كنت أود أن أحتل مكانا يحتاج إليه العلماء والأدباء للتعبير عن رأيهم .. أما اليوم فقد اضطررت أن أقبل ذلك المركز حين دعتنى لجنة الثقافة المركزية ، وقد اخترت موضوع المحاضرة « وجهة النظر الجديدة فى الحياة » لعلى أسترعى انتباه السامعين .

وأبدأ كم بأن من الحق الا أتهور فى هذه المحاضرة ، فانى لم أتعمق بحث الموضوع ، وكل ما جمت فيه ليس إلا رأيا لا يكاد يجتمع على نفسه ولا نظام له يمسكه ؛ لكن يخيل إلى أنى ما دمت بشراً يحيا بين أرجاء العالم ، وما دام لى شىء بسيط من الفكر ، فمن حق أن يكون لى وجهة نظر فى الحياة فيما عدا الضروريات من أكل ونوم وعمل ، سواء أكان وجه النظر هذا عميقاً أم سطحياً . ومع هذا فانى أظن أن وجهات النظر فى الحياة لا تزال تتغير دائما بتغير الأوقات من حيث التقدم والتأخر . إذ من المستحيل أن تظل واحدة مدى الحياة ، لذلك طالما تغيرت وجهة نظرى فى الحياة وتطورت ، وأنا أرجو دائما أن يكون تطورها علامة التقدم .

وقع الشك فى قلبى من مسألتين ، حين قارنت نظم المجتمع ومستقبل الوطن بما أعرف من خلق الشخصى ومعاملتى للناس .

الأولى أنه قد مضى علينا آلاف ومئات السنين ونحن نبحث عن العفة والفضيلة والخلق الحسن ، وندرس عوائد الإنسانية والرأفة والرحمة ، منذ عهد كونفشيوس ؛ ولكننا مع ما بذلنا من جهد فى البحث والدرس ، فقد بعدت سيرة الأمة عن القصد كل البعد ، حتى خرجنا عن كوننا أصحاب عفة وفضيلة ورحمة . إذن لا شك فى أنه لا يكفينا بحث الخلق الحسن ودراسة الفضيلة فقط فى هذا العصر .

والأخرى أننا تعودنا كلما تحدثنا فى تاريخ الشعوب أن نقول إن لنا تاريخاً مجيداً وحضارة تليدة منذ خمسة آلاف سنة . نعم ، ولا شك فى أن لنا تاريخا حافلا طويلا وحضارة مجيدة ، وهو تاريخنا وحضارتنا حقا . ولكن لماذا تأخرنا الآن ؟ لا شك أنه لا ينفعنا مجد أجدادنا منفردا .

بسبب هاتين المسألتين وشكى فيهما ، تذكرت ما قال الفيلسوف « نيتشة » . « من الضرورى تقدير قيمة كل شىء من جديد . »

* * *

لقد أفزعتنى مصيبة الوطن وأزمة الأمة التى أصابتنا منذ حادث[1] ١٨ سبتمبر جد الافزاع ، وحملتنى على أن أفكر فيما يستحق التهذيب من خلق حسب قواعد المروءة خاصة ، ثم فيما يجب على لخدمة الوطن حسب القوانين عامة . وأخيراً رأيت أن أعرض على الناس اقتراحى فيما أسميه « خطوات المرء الثلاث » ، وهو يشير بأن لا نعمل شيئاً ، إلا (١) لفائدتنا بدون خسارة الناس ، و (ب) لفائدتنا وفائدة الناس ، و (ج) لفائدة الناس وإن لم نستفد .

نعم ، إن الإنسان كان حيوانا أنانيا ، إذ كان يفتح فمه لشرب اللبن منذ أن ولد ، ثم يخاصم أمه على شىء من الأكل والشرب فى عهد الطفولة . ولكن مهما يكن الأمر ، فالواجب على من بلغ سن الرشد الذى هو وقت حاجة المجتمع إلى عناية الفرد أن لا يعمل شيئا إلا حيث يستفيد بدون أن يضر الناس

---

(١) فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣١ ادعى اليابانيون أن الجيوش الصينية خربت السكة الحديدية لمنشوريا الجنوبية ، والواقع أنهم هم المخربون لها ، ضربت جيوش اليابان مدينة (مكدون) بهذا السبب ، ولم يكتفوا بذلك ، بل احتلوا ولايات الصين الشمالية الثلاث ، وكونوا (منشوكو) المستقلة فى الظاهر المستعمرة فى الواقع . بذلك بدأ اضطراب السلام فى العالم .

ثم إن استفاد وأفاد فذلك خير ، أما إن أمكنه أن يضحى بنفسه وفائدتها فى سبيل فائدة المجتمع فذلك ممن بلغوا الذروة فى الفضل والتضحية .

إنا إذا ترسمنا خطوات هذا الطريق فى سبيل مصلحة الوطن والعالم ، ضمنا ألا يعمل إنسان إلا لفائدته بدون ضرر الوطن والعالم ، أولفائدته وفائدة الوطن والدنيا جميعا ، أو يضحى بنفسه فى سبيل الوطن والعالم ، وذلك منتهى الإيثار .

على أساس هـذه القاعدة ، كنت ألقيت خطابا فى جامعة « تسين هوا » بمدينة بنغ بين ، ثم كتبت ست مقالات تحت عنوان « إلى شبان الشمال » حين وصلت إلى شنغ هاى ، بنيتها على هذه الأساس أيضا . أما من ناحيتى ، فكنت ولا أزال أتمسك بهذه المبادىء ، لتهذيب خلقى الشخصى خاصة ولأحسن معاملتى مع الناس عامة .

وفى الربيع الماضى الذى كان آخر مرحلة من مراحل حرب الدفاع المقدس ، حين بدا لنا بارق النصر ، استأنفت الجهاد فى إيقاظ أبناء وطنى ، ليعملوا جهدهم فى إشعال الروح القومية ونبذ الكراهية والتلاوم والمحاباة . وذلك لما لاحظت فى قلوب الناس من دلائل الأغلال واليأس من الحياة ، قاصداً بذلك الإيقاظ انتشال الناس من المنحدر الذى كادوا ينحدرون إليه ، ودفعهم إلى تيار جديد عاصف . ولكننى الآن قد شعرت إزاء أمنيتى تلك أن كل ما عنيت ليس كافيا .

ولماذا شعرت بعدم كفايتة ؟ ذلك لأن كل ما بقى فيما أشرت إليه من المسألتين المذكورتين لا بد أن يعاد تقدير قيمته ثانية .

إنى متأكد كل التأكيد أننا لا نقدر أن نتفوق على الهنود فى بحث علوم الفلسفة . ذلك لأن فلاسفة الهنود قد بلغوا ببحوثهم أبعد حدود الخيال الجميل ، حتى كأنهم كشفوا مرج عبقر حيث يسكن الجن ، وكل هذا بدأبهم على البحث ومزاولة الزهد والطمع فى نعيم الجنة ، حتى أنكروا الحياة وعدوها من البلايا والمصائب ، ولكنهم أصبحوا من أضعف الأمم فى العالم ولا يزال وطنهم مستعمرا .

وإنى لأعتقد كل الاعتقاد ، وقد زعمنا أن لنا تاريخا فى الحضارة منذ خمسة آلاف عام ، أننا لن نقدر أن نتفوق على المصريين من حيث ذلك التاريخ ، لأن أسلافهم قد بنوا الهرم الأقدم قبل خمسة آلاف عام ، وألفوا التقويم السنوى لمعرفة أيام السنة ، قبل ستة آلاف سنة ، وكل هذا ظاهر بين ، فمن الحقيقة أن المصريين كانوا من الذين بنوا الحضارة ، ولكنهم الآن لا يزالون من أضعف الأمم ، ولا بد أن يبذلوا أقصى جهدهم للنهضة على الرغم من أن بريطانيا سمحت بالاستقلال .

أما علوم الأخلاق وفلسفة الحياة ، فقد كان أهل الصين فيها مبهرة متفوقين على غيرهم ، ولكن شعب الصين ما يزال الآن متأخراً أيضا .

وكم شعرت دائما حين بدت لى علائم الضعف ، بأن ثمة شيئا من الخلل يعيث بحضارتنا ، ولا بد أن نبحث عن منشئه الأصلى خلف دائرة البهرج الظاهر فى حضارتنا .

بحث صديق « لين تاو تزى » فلسفة نيتشة ونقدها ، ثم بين بحثه فى مقاله « نظرى إلى نيتشة » ، ولخص مذهب الفيلسوف فى كلمتين ، وهما : « إن الابتكار يكتشف ليعطى للناس ، ولكن ذلك الإعطاء ليس شفقة بهم » . أى أن القصد من الاختراع هو انتفاع العالم ، ولم يكن المخترع رحيما بالعالم فاخترع ، إنه يجهد فكره ليستفيد ويتمتع ، ثم حين يكتفى بالمتعة ، يعرضه على الناس ، إنما كان يخترع لنفسه ، وما كان يفعل كما فعل « يسوع وبوذا » رحمة للناس وإشفاقا عليهم .

إن النشاط لب الحضارة وروحها حقا ، إذ أنه لا تبقى حضارة إلا بالاختراع ، ولا يعيش ابن آدم ولا ينمو إلا والاختراع يقدمه من جهاته جميعا .

ومنذ يوم أن عرفت « أن الابتكار لنفع الناس ، ولكن انتفاع الناس ليس ناتجاً عن رحمة المخترع بهم » ، اتسع نطاق فكرى أو امتدت مسافته ، فتمكنت من معرفة بعض أساليب الحياة . خذوا منها مثلا ، فالشمس لو أضاءت ونشرت أشعتها وحرارتها ، فسرت الحياة فى الكائنات ونما النبات وشب الحيوان ، ثم توجهنا إلى الشمس وسألناها : « أيتها الشمس ! هل أنت أشرقت ونشرت الحرارة من أجل الدنيا وما فيها ؟ » فقد تجيبنا الشمس مرتبكة حائرة :- « لا أدرى ، لا أدرى ! » وإذا نحن كررنا السؤال وأبينا إلا أن نعرف السبب فى ضيائها ،

فرعا أجابتنا مضطرة « إنى أنشر الحرارة لأنى أريد الحرارة ولا بد لى منها ! » تلك إحدى نظريات الحياة وأساليبها عرضتها عليكم أيها الكرام ، وهى قانون من قوانين الحياة التى تندفع إلى الأمام بدون تردد ، لذلك أعتقد أن الاختراع سيستمر كما فهمت من نظرية الشمس والحياة . وهذه النظرية وإن كانت من أنواع الفلسفة ، إلا أنها ليست مما يتفق مع مذهب « نيتشة » بل من فلسفة أعلى من فلسفة نيتشة .

لست أريد الغموض والخفاء بالبحث فى الفلسفة والنطق بها فى حديثى عن نظرية الشمس ، كلا ، فانه لا غموض فى الأمر ولا خفاء ؛ لأن ما قصدت من ذلك هو أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متجاوزة نطاق المتاع الشخصى إلى قوانين السماء ، المراد بالسماء ما وراء الطبيعة ، بل حقيقة الطبيعة ، وبكلام أكثر صراحة ينبغي أن تكون وجهة نظرنا فى الحياة متعدية تلك الحدود التى يعامل بها بعض الناس بعضا ، مسيطرة على الطبائع والكفايات ، مستعملة إياها فى الابتكار للحياة ، وهى ما دامت قد استخدمتها على ذلك الأساس فهى عين الفضيلة ولب السعادة للانسان ، وليست تلك الأمور فى حاجة إلى مراعاة وعناية ، بل هى داخلة فى نطاق منافع الحياة عن طريق الابتكار .

إن شدة العناية بالمتاع الشخصى والتجاوز عن مسايرة قانون الطبيعة هو الذى كلف حضارة الصين الخسارة والضرر . ولا شك أن أكثر العلوم العالية الصينية ، كان من فلسفة الحياة وأكثر علمائنا قد بحث علاقات الناس ببعض بحثاً عميقاً ظاهر العمق . خذ مثلا : ما يقال من أن كونفشيوس تشرف بزيارة الكاهن « لووتز » طالباً أدباً ؛ وكان كونفشيوس لا يزال شابا ناضج العقل ذا عزم وطموح ، فقال له « لووتز » بوقار الكهنة : « أترك ما فى نفسك من العناد والكبر ، ثم امح من نفسك ذلك الشره الذى غلب عليك . » يعنى ألا تكون مضطرم الفكر متبرم القسمات ؛ وألا تبق فى قلبك شيئا من حب الشهرة والطموح . ثم قال : « إن التاجر الغنى هو الذى يخزن سلعه فى أعماق متجره ، حتى كأن دكانه خال من البضائع ؛ وإن الإنسان الكامل من يكون فى عفته الموقورة كالأحمق . »

فأولى هاتين الكلمتين تعلم الإنسان أن يكون تاجراً خائنا ، يدخر بضائعه لينتهز فرصة للربح الفاحش ، وثانيتهما تعلم الناس أن يتحامقوا عمداً . إلا أن كونفشيوس احترم « لووتز » ورأيه كل الاحترام ، فانصرف وقال لتلاميذه : « إنى تشرفت اليوم بمقابلة السيد الكاهن « لووتز » ، وما هو إلا تِـنِّين ! »

وأعظم الظن أن كونفشيوس قد أخذ يكره تلميذه « تزلو » الشديد الجور بعد أن أدبه ، وكان دائما يشتمه قائلا : « يا للمزاج المعجى ! يا للطبع البربرى ! » ثم أخذ تلميذه الأستاذ « تزتوا » يتاجر بعد ذلك ، فكسب كسبا جزيلا . فلا جدال أن فلسفة « لووتز » فلسفة ماكرة . وأما فلسفة « جواتز » ، فقد كانت فلسفة الجبن والضعف ، لأنها ستار يحتمى به صاحبه من ضرر الملوك الجبابرة من جهة ، وطريق يدرج فيه من جهة أخرى .

ولا جدال فى أن الأمبراطورين « ياو » و « شون » كانا من المثل العليا للعفة وحسن الخلق ، فلذلك دأب الصينيون على ذكر اسميهما فى معرض أمثال العفة وحسن الخلق . ولقد كان « شون » يعتبر الدنيا كحذاء عتيق لما كان أمبراطوراً ، وكان يبكى بكاء مراً ، ويستغفر الله من قسوة أبيه « قوسى » ، حتى هم أن يفر من الدنيا . وفوق ذلك كان دائما يهتم بشأن أخيه « شينغ » التعس الشرير لقلبه الخئون ، فكان يسر لسرور أخيه ، ويحزن لحزنه أيضا : وإذا كانت شئون النبى أو الأمبراطور لم تخرج عن حيز المتاع الشخصى هكذا ، فما شأن من قلت منزلتهم عن النبى والأمبراطور ؟

قال لى الأستاذ « فوماوجيغ » إنه حاول أن يكتب مقالا ، يتحدث فيه عن شئون موظفى الصين . وقال : إن الصينيين تعودوا أن يقرنوا ذكر الوزراء بذكر السرايا والحظيات ، بل إنهم يعدونهم طبقة واحدة من الناس ، حتى أصبحت السرايا والحظيات يتخذن أسلوب الوزراء والموظفين فى الحديث ، وينظرن إلى الحياة نظرتهم تماما ، حيث يتملقون أسيادهم رجاء رضاهم وسرورهم ومحبتهم لهم . ويعودون على زملائهم بالكراهة والخصام والحسد ، ثم يظلمون من هم أقل منهم بسطوتهم النافذة كل الظلم .

قلت له : ما أصدق ماقلت ، إلا أننى أخشى ألا تسمح سلطة الرقابة الجديدة بنشر مقالك هذا ، ولست ضامنا لك قط ذلك .

البقية فى العدد القادم

نور ناهين